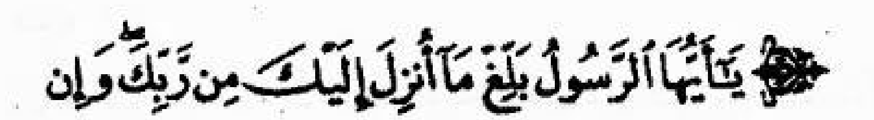
وقوله الحق : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . هو حكم عام ؛ فهل وُجِدَ من يؤديه ؟ . نعم ؛ هناك أناس منهم عرفوا ذلك وساروا إلى السبيل المستقيم ، وعن هؤلاء يقول سبحانه : « منهم أمة مقتصدة » والمقتصد هو الذى يسير فى السبيل القاصد ، وهو السبيل المستقيم إلى الغرض فلا ينحرف هنا أو هناك .

إذن قوله الحق : « منهم أمة مقتصدة » . أى منهم أمة تسير إلى أغراضها وإلى غايتها على الطريق المستقيم . وهذه إشارة إلى أن بعضاً من أهل الكتاب يفعل ذلك ، والبعض الآخر لا يفعل ، وهذا القول أشار أيضاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يُخلى وجوده وكونه من خلية خير فيه ، وقد تكون خلية الخير هذه من أضعف الناس الذين لا شوكة لهم فى الدنيا ولا جاه ولا قوة . ولولا هؤلاء الناس لهدّ الله الأرض ومن عليها . ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بقوله : « لولا عبادٌ لله رُكع ، وصبية رضع ، وبهائم رُتّع لصُبّ عليكم العذاب صبا ثم رُصّ رَصّا »(١) .

كأننا مكرمون فى هذا العالم من أجل الضعاف فينا . وكأن الحق لا يحجب الخير عن كونه ، بل يجعل فى الكون ذرات استبقاء للخير . ولذلك نجد من يقول : إذا بالغ الناس فى الإلحاد زاد الله فى المد . وقد تجد بلداً كلها من الملاحدة ، وتجد فيها عبداً واحداً متبتلاً لربه ، ويكون هذا الرجل هو الذى يستبقى الله من أجله هواء تلك البلدة وماءها . ولذلك قال سبحانه : « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

ويقول الحق من بعد ذلك :



(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير والبيهقى فى السنن الكبرى .

﴿ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

تبدأ الآية بخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن عظمة رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلو مكانته عند من اصطفاه خاتماً لرسالاته فى الأرض أن الله ذكر الرسل فى خطابه لهم بنداء أسمائهم فقط كقوله الحق :

﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة البقرة)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

فسبحانه ينادى كل رسول له بالاسم المشخص للذات بصرف النظر عن أى صفة ، لكن رسول الله لم يُناد باسمه أبداً بل ناداه الحق بالمشخص للوصف : « يا أيها الرسول » . أو قوله الحق : « يا أيها النبى » .

فكأنك يا رسول الله قد اجتمعت فيك كل مسائل الرسالة لأنك صاحب الدين الذى سينتهى العالم عنده ولا يكون بعد ذلك لله فى الأرض رسالة إلا فهم يؤتيه الله لأحد فى كتاب الله .

ومن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أقسم بحياته ، على الرغم من أن الحق لا يقسم بحياة أحد من البشر إلا رسوله ، فقد أقسم بحياته . وهو سبحانه

يقسم بما يشاء على ما يشاء ، أقسم بالريح والضحى والليل والملائكة ، لكنه ما حلف بحياة بشر أبداً إلا حياة محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ . (سورة الحجر)

أى وحياتك يا محمد هم فى سكرتهم يعمهون أى يترددون حيارى . ويقول الحق هنا مخاطباً الرسول: « يا أيها الرسول » . ومادام محمد هو الرسول الخاتم الذى جاء مصدقاً لما بين أيديهم من الكتب ، فمعنى هذا أن كل خير فى أى كتاب سبق القرآن موجود فى القرآن وفيه أيضاً زيادة مما تتطلبه مصالح الحياة المستجدة . وما دام الخطاب للرسول فهذا يعنى أنه رسول مرسل من قبل الله بمنهج لخلقه ليبلغه لهم : « بلغ ما أنزل إليك من ربك » . وكيف يقول الحق لرسوله : « بلّغ » وهو يعلم أن مهمة الرسول هى البلاغ ؟

لقد أراد سبحانه بذلك إخبار الناس أنه إن أبلغهم بما يكره بعضهم فهو يبلغ التزاماً بأمر الله ، فهو لا يقول من عنده ، ذلك أن الرسول عليه البلاغ ، فإن أبلغ أحداً ما يكدره فليس له مصلحة فى ذلك . ويورد سبحانه ذلك حتى إذا بَلَّغ الرسول حكماً من الأحكام فعليهم أن يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من الله وسبحانه يعلم أن رسوله لا يكتم البلاغ ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر ، فهو سبحانه حين يخاطبهم بشىء قد يكرهونه ، فهو بلاغ من الله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . أى أنه إن لم يفعل ولو فى جزئية يسيرة من المنهج فهذا معناه أن البلاغ ناقص والله يريد أن يكون البلاغ كاملاً بالدين المتكامل .

إن التركيبة الإيمانية تقتضى أن يأتى القول بهذه الطريقة حتى ينسجم البلاغ بشكل كامل ؛ فقد نزل المنهج بكليته ، ويجب أن يُطبق بكليته من أجل أن ينصلح الكون وحتى لا تفسد حركة الإنسان فى الكون ، فقد أنزل سبحانه المنهج وأحكمه ليسير العالم على حسب تصميمه له دون أن يختل . ولذلك يقول الحق : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . وبذلك يعطى الحق رسوله المناعة الكاملة . فلم يأت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لخير الناس.

لقد سبق أنْ خلق الله آدم وأعطاه المنهج . وكان على آدم أن يبلغ المنهج إلى الذرية وقد فعل ، لكنَّ بعضاً من أجيال بنى آدم غفلت عن المنهج ؛ فيبعث الحق الرسل لتذكر بالمنهج . ولا يأتى رسول إلا بعد أن يكون الفساد قد فشا وانتشر بين الناس . وقد جعل الله فى النفس الإنسانية نفساً لوامة ، ونفساً تأمر بالسوء ، ونفساً مطمئنة .

إن مهمة النفس اللوامة هى أن ترد على كل ما توسوس به النفس الأمارة بالسوء . لكن إن لم تلم النفس اللوامة ، فالنفس الآمرة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادع . أما النفس المطمئنة فهى النفس التى تطمئن إلى منهج الله . ومثال ذلك الإنسان الذى تلح عليه شهوته لارتكاب معصية ما فيرتكبها ، ومن بعد ذلك يندم ويلوم نفسه ، ويتوب عن المعصية ، هذا الإنسان يردع نفسه ذاتياً . لكن إن سيطرت النفس الأمارة بالسوء فلا رادع .

وماذا إذا ساد الفساد بين عموم الناس ؟ وماذا لو لم يتناهَوْا عن المنكر الذى يفعلونه ؟ هنا لا بد أن يرسل الحق رسولاً بمعجزة جديدة ليأخذ العالم إلى منطق الرشاد ومنهج الحق .

ولا يختار الحق الرسول إلا إذا علم الرسول أنه مبلغ عن الله . وسبحانه فى الآية التى نحن بصددها يعطى رسوله المعذرة إن بلغ قومه شيئاً يسوؤهم ، فما على الرسول إلا البلاغ فى قوله : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . ونعرف أن الرسالة تقتضى : المرسِل وهو الله ، والمرسَل إليهم وهم الخلق ، ومرسَلاً وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمرسَل به وهو ما نزل على الرسول ليبلغه . وفى كل أمر مثل هذا نجد أن كلمة « أرسل » يتعدى إلى مفعولين ؛ المرسَل : مثال ذلك أرسلت فلاناً إلى فلان ، والمرسل إليه : وهو فلان . إذن فهنا مفعولان اثنان ، أولهما تعدى الفعل إليه بذاته والآخر تعدى إليه الفعل بحرف الجر .

وحرف الجر هنا هو : « إلى » . وبطبيعة الحال يعرف الرسول أنه مرسَل إلى الناس من الله رعاية لمصالحهم ؛ فليس فى أمر الرسالة شىء لصالح الله . وإن رأيت تعدياً بـ « إلى » فهو لتحديد الغاية المرسل إليها ، مثل قوله الحق :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة آل عمران)

وهذا يوضح أن عيسى ـ عليه السلام ـ جاء مبعوثاً بمنهج إلى بنى إسرائيل لصالح بنى إسرائيل . ومثلما يقول الحق : وأرسلناك للناس رسولاً » . أى لصالح الناس . و« اللام » هنا تفيد المعنيين ؛ النفعية والغاية .

« بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » أى أنه صلى الله عليه وسلم إن لم يبلغ الرسالة كاملة فمعنى ذلك أن البلاغ يكون ناقصاً . ومعاذ الله أن يكون بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنقص شيئاً ، فمنهج الله كل متكامل .

وقد يقول قائل : ولكن الناس قد لا تؤدى فروض الله فى مواعيدها ، والمثال على ذلك هو الصلاة . ونقول : إن هذا عجز فى إدارة الناس لحياتهم حسب منهج الله . ومنَ واجب المجتمعات أن تنظم حركة الناس اليومية من بعد صلاة الفجر إلى الظهر . وفى ذلك قدر هائل من الحيوية والنشاط ، وينتهى العمل عند الظهر ، فلا تتصادم حركة الناس مع منهج الله ، ولا توجد عرقلة ولا نشاز فى حركتهم .

ثم يقول الحق : « والله يعصمك من الناس » . وكان لا بد أن يأتى هذا القول الحكيم ؛ لأننا نعرف أن الرسول لا يجىء إلا بعد أن يعم الشر ويسود الفساد ، ذلك أنه لو لم يسد الفساد ، ولم يعم الشر لاكتفى الله بالمجتمع ليردع بعضه بعضاً ، أو يكتفى الحق بأن تردع النفسُ اللوّامةُ النفسَ الأمارةَ بالسوء لتستوى النفس المطمئنة على عرش السلوك البشرى .

لكن عندما يعم الفساد الكونَ . فالسماء ترسل الرسول بمنهج يصلح حال البشرية . وبطبيعة الحال لن يترك المجتمعُ الشريرُ الرسولَ لحاله بل يقاومه ؛ لأن مثل هذا المجتمع يريد أن تكون كفة الكون غير متوازنة ؛ لأن هناك منتفعين بالفساد والشر ، وهم المدافعون عن الفساد ، فإن جاء من ينصف الضعفاء والمظلومين فلا بد أن يتعرض للمتاعب التى تأتيه من قبل الأقوياء المفسدين .

إن هذه المتاعب تبدأ أول ما تبدأ في النفس ؛ ولأن الرسول مخاطب من الله فيمكنه أن يتحملها لأن الحق قد أعده لهذه المهمة ، ومثل تلك المتاعب تأتي أيضاً للأتباع ، لذلك يمدهم الله بالمدد الذي يجعلهم يتحملونها . والحق يحفظ للرسول ذاته على الرغم من كل ما يحدث: « والله يعصمك من الناس » .

فكأن الحق يقول لرسوله : اطمئن يا محمد ؛ لأن من أرسلك هداية للناس لن يخلي بينك وبين الناس . ولن يجرؤ أحد أن ينهي حياتك . ولكني سأمكنك من الحياة إلى أن تكمل رسالتك . وإياك أن يدخل في رُوعك أن الناس يقدرون عليك ، صحيح أنك قد تتألم ، وقد تعاني من أعراض التعب في أثناء الدعوة ، ولكن هناك حماية إلهية لك . ونحن نعلم قدر المتاعب التي تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم تكسر رباعيته(١) صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد؟ ألم يشج وجهه؟ ألم تدم أصبعه فيقول : « إن أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت »(٢) .

لكن قول الحق سبحانه لرسوله: « والله يعصمك من الناس » لم يكن المقصود هو منع الجهاد في سبيل الله والمعاناة في سبيل نشر الدعوة . ولكن الحق يبين لرسوله: إن أحداً غير قادر على أن يأخذ حياتك .

ولم يمنع سبحانه المتاعب عن رسوله الكريم حتى لا يكون هناك أحد الداعين إلى الله لا يتحمل من الآلام أكثر مما تحمل رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولننظر ونستمع جيداً إلى ما ترويه عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ حول هذه الآية إنها قالت :

«سهر رسول الله ذات ليلة وأنا إلى جنبه، فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ قال: (ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة)، قالت: وبينما نحن في ذلك إذ سمعت صوت سلاح فقال صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ فقالوا: سعد وحذيفة جئنا نحرسك . فنام صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه ونزلت هذه

---

(١) الرباعية : السن بين الثنية والناب .

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة .

الآية فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قُبَّة أدم وقال : « انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله »(١) .

وهناك باحثة بلجيكية عكفت على دراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصلت إلى هذه النقطة ، فتوقفت عندها لتقول : لو كان هذا الرجل يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته ، ولو لم يكن واثقاً من أن الله يحرسه لما فعل ذلك كتجربة واقعية تدل على ثقته فى خالقه . وأضافت الباحثة البلجيكية : ولذلك أنا أقول بملء اليقين : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . لقد أسلمت المرأة لمجرد وقوفها عند لمحة واحدة من لمحات حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك : «إن الله لا يهدى القوم الكافرين » . ونعرف أن الهداية تعنى الدلالة الموصلة إلى الغاية ، .وهى أيضا المعونة التى توصل طالب الهداية إلى الغاية . وكان الكفار الذين يبيتون للرسول وينهكون أنفسهم فى المكر والتفكير والتبييت ، فيقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم كل سبيل ، وينصره عليهم ، ويأتى التطبيق العملى لنصر الله للمؤمنين فى بدر :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

لقد بيتوا ، ولكن عند المواجهة لم يقدروا على محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ولم يستطيعوا إيذاءه ، برغم المكر والتبييت ؛ لأن الحق قطع عليهم كل سبيل لإيذاء محمد ، ولن توجد وسيلة من وسائل اللؤم والخبث قادرة على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تمثل ذلك يوم خرج رسول الله مهاجراً وغطى الله أبصار فتيان القبائل الذين حملوا سيوفهم ليقتلوا محمداً وليفرق دمُه بين القبائل فلم يبصروه لأن الله جعل على أبصارهم غشاوة .

إذن فكلما فكروا فى طريقة سد الله عليهم منافذ تنفيذ فكرتهم . وكأنه يقول لهم : لن تستطيعوا مصادمة محمد فى منهجه لا بالعلن ولا بالدس ولا بالخفية ، بل أنتم

(١) رواه القرطبى ، وروى مسلم قالت : - أى السيدة عائشة - فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح (أى صوته) فقال : من هذا ؟ قال سعد بن أبى وقاص فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : ما جاء بك ؟ فقال وقع فى نفسى خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أحرسه فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام .

ـ أيها الكفار ـ تخدمون الدعوة من حيث تريدون هدمها ، فقيامكم ضد محمد فى بداية الدعوة كان لإثبات أن الحق جل وعلا أراد أن يشتد عود الدعوة بكفر أهل قريش . وعندما أردتم قتل محمد وأن يتفرق دمه بين القبائل خرج محمد سالماً وأغشى الله أبصار الذين أرادوا القتل ، وهاجر صلى الله عليه وسلم . وفى الطريق إلى الهجرة يكون دليله من الكفار وهو عبدالله بن أريقط . كان ذلك لنعلم أن الكفر كان وسيلة الهداية إلى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عبدالله بن أريقط وهو كافر لا تغريه المكافأة أن يشئ ويسعى بالرسول لدى مشركى مكة . ولكنهم لم يتخذوا من كل ذلك عبرة . وكذلك الغنم تُعفى الأثر ، والأرض تشد قوائم فرس سراقة لتغوص وتسوخ فيها .

إذن فكل جنود الله فى صف محمد بن عبدالله . وهكذا رأينا كيف لم يهد الحق القوم الكافرين إلى الغاية التى أرادوها وهى التمكن من محمد صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً لا يهديهم الله إلى الإيمان . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

و« قل » ـ كما نعرف ـ هى خطاب له صلى الله عليه وسلم ، وما يلى ذلك بلاغ من الله لأهل الكتاب إنهم بلا منهج لأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل بل حرفوهما ، ولم يؤمنوا بالقرآن ، وهو المنهج الكامل المنزل على محمد بن عبدالله .

وحين يقول الحق : « لستم على شيء » فكلمة « شيء » تقال لأدنى فرد من أى جنس ، فالقشة شيء ، وورقة الشجرة شيء ، وما يطلق عليه شيء - إذن - هو الأقل .

وقوله الحق : « لستم على شيء » أى إياكم أن تظنوا أنكم حين تقومون بتنفيذ جزء من تعاليم التوراة والإنجيل وتخفون الباقى وتهملونه تكونون قد أخذتم شيئاً من الهداية ، لا ؛ فأنتم لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وتؤمنوا بالكتاب الذى أنزل على محمد . والمنهج ليس عرضة لأن تأخذوا منه ما يعجبكم وأن تتركوا ما لا يعجبكم .

وعندما يقال : « لستم على شيء » . ونعرف أن الشيء هو أقل مرتبة فى الوجود ، ولذلك نقول : شيء خير من لا شيء . ويقال بالعامية : هاش خير من لاش و« هاش » هو الهالك من ثياب المنزل الممزقة ، أى أن الذى يملك ملابس ممزقة أفضل ممن لا يملك شيئاً على الإطلاق .

وقوله الحق : « لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » هو إيضاح لهم أنهم فى المرتبة الأدنى من الكائنات لأنهم بلا منهج . ويضيف : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » أى أنهم لن يظلوا على درجة واحدة ثابتة من الطغيان والكفر ، بل كلما أنزل الحق إليك آية يا محمد ، وكلما نصرك الله فى أمر ازدادوا هم طغياناً وكفراً . وكان من المفروض أن زيادة نزول الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم تكون إضعافاً لتشددهم وترقيقا لقلوبهم ، لكنه سبحانه أراد أن تشتد شراستهم وحقدهم فى أمر الاعتراف بالإسلام .

وقد حدث من خالد بن الوليد وكان فارس الجاهلية ضد الإسلام أن قال لعمرو ابن العاص : لقد استقر الأمر لمحمد . واتجه الاثنان إلى الإسلام على الرغم من أن كلا منهما يعرف قوته ومكانته بين قومه . وبعد أن رأى خالد وعمرو أن الخيبة هى نصيب الواقف ضد محمد مهما علا شأنه ، ذهبا إلى الإسلام ، وهذا هو موقف المتدبر للأمر دون حقد ولَدَد . أما الذى يزدحم بالمعاناة حقداً ولدداً فتزيده آيات الله لنصرة

منهجه حقداً ولدداً وطغياناً ؛ لأن الله شاء ألا يهديهم . ولذلك تصير كل آية فى صف الإيمان والمؤمنين مصدرَ إثارةٍ وغيظ ومرارة فى نفوس أهل الكفر . وهكذا يوطن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره تجاه هؤلاء الكفار .

إنك يا رسول الله لا تواجه طاقة محدودة ولكنك تواجه طاقة من الشر النامى . وكل آية إنما تهدى الذى فى أعماقه بذرة من خير ، أما الذى ينتفى الخير من داخله فالمسألة تزيده شراسة فى قلبه . إن الشرير يُصَعِّد الشر ويزداد جُرمه وإثمه، أما الخير فينزل من قِمّةِ الجرم إلى أقل درجة . ولنا المثل فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، فالحق يقول على لسان إخوة يوسف :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

ومن بعد ذلك قالوا لأبيهم : « مالك لا تأمنا على يوسف » . ثم أخذوا فى التبييت والتدبير وقالوا : « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب » . وكان أول تدبير لهم هو ما قاله الحق حكاية عنهم : « اقتلوا يوسف » .

ومعنى القتل هو إزهاق الروح ، وهذه أعلى درجات الشر ، لكنهم يتراجعون عنها ويقولون : « أو اطرحوه أرضاً » . فهم لم يرغبوا فى قتله ، واكتفوا بأن يتركوه فى مكان بعيد ، وتصوروا أن بعض السيارة قد يلتقطه فيبعدون يوسف عن أبيه . إذن هم بدأوا التدبير قتلاً ، ثم انتهوا بالتفكير لنجاة يوسف :

﴿ اقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

والمرحلة الثالثة قولهم : « ألقوه فى غيابة الجب » والجب فيه مياه ، وهناك أناس كثيرون يذهبون إلى مصادر المياه . هكذا يورد الحق لنا كيفية نمو الخير من بطن الكيد .

إذن . فقوله الحق : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » أى أن الكثير منهم سيواصل رحلة التصعيد فى الشر ، فوطن نفسك يا محمد على ذلك .

ونلحظ أن الحق قد وضع صيانة لاحتمال أن تفكر قلة منهم فى الإيمان ، لذلك لم يشملهم كلهم بالحكم ، ولكن الحكم شمل الكثرة من هؤلاء الكافرين . ولذلك يقول الحق لرسوله : « فلا تأس على القوم الكافرين » أى لا تحزن عليهم يا رسول الله . فعلى الرغم من عداوة وشراسة من صادموا دعوته صلى الله عليه وسلم ومحاولتهم كل تلك المحاولات ، كان لا يكف عن الدعاء لهم : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[1] . وكان لا يكف عن القول : « لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله »[2] وقد تم ذلك بالفعل .

وكان الصحابة بعد الغزوات الأولى يقول كل منهم للآخر : أنا حزين لأن عمرًا أفلت منى ولم أقتله . فيقول الآخر : وأنا حزين لأن عكرمة أفلت منى . ويقول الثالث : وأنا لا أدرى كيف أفلت منا خالد بن الوليد . ولم يمكن الحق الصحابة الأوائل من هؤلاء المقاتلين الأشاوس لأنه يدخرهم للإسلام ، فكان عدم تمكين المسلمين من هؤلاء تمكيناً للإسلام ليحملوا السيف للإسلام مدافعين وناشرين لدعوته . وها هوذا عكرمة بن أبى جهل يتلقى الطعنة الأخيرة فى حياته فيضع رأسه على فخذ خالد بن الوليد ويسأله : أهذه ميتة ترضى عنى رسول الله ؟ إذن فقد أراد الله من عدم تمكين المسلمين منهم فى أوائل الغزوات أن يكونوا جندًا للإسلام بقدراتهم القتالية فاستبقاهم أحياء ليخدموا الدعوة . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّـٰبِـُٔونَ وَالنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين ، والسيوطى فى الدر المنثور .

(٢) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ومسلم فى الجهاد .

هم - إذن - أربعة ألوان من الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله . وهذه الآية وردت في صورتها العامة ثلاث مرات ، مرة في سورة البقرة ، ومرة هنا في سورة المائدة ، ومرة في سورة الحج .

ففي سورة البقرة يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولنلحظ أن كلمة « الصابئين » في هذه الآية منصوبة .

وفي سورة المائدة نجد قول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنلحظ أن كلمة « الصابئون » هنا مرفوعة ومقدمة على كلمة « النصارى » .

وفي آية سورة الحج يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

هنا إخبار عن أربعة ، وزاد الحق عليهم اثنين في آية الحج ، ونجد أن الإخبار يختلف ، وكذلك يختلف الأسلوب ، فمرة تتقدم النصارى على الصابئين ، ومرة تتقدم الصابئون على النصارى . ومرة تكون الصابئون مرفوعة ، ومرة تكون منصوبة بالياء .

وأما اختلاف الإخبار ، فهو سبحانه يخبرنا في سورة البقرة فيقول :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة البقرة)

والخبر فى سورة المائدة هو :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة المائدة)

والخبر فى سورة الحج هو :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحج)

والآيات الثلاث فى مجموعها تتعرض لمعنى واحد ، ولكن الأساليب مختلفة وكذلك الغايات فيها مختلفة .

ونلحظ هنا أن الحق قال : « آمنوا » والإيمان هنا هو الإيمان اللفظى أى بالفم وليس بالقلب ، والمتصفون بذلك هم المنافقون والذين هادوا ، هم أتباع موسى ، والنصارى هم أتباع عيسى ، والصابئون ليسوا أتباعاً لأحد فقد كانوا أتباعاً لنوح ثم صبأوا عن ديانة نوح وعبدوا الكواكب ، أو هم قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة . والمجوس وهم عبدة النار . إذن فالحق يريد أن يجرى تصفية إيمانية فى الكون ، فمن يبادر ويدخل فى هذه التصفية . يسلم من شر ما فعله قبل مجىء الإسلام ، ذلك أنهم أضلُّوا اناساً أو حكموا بالظلم .

والحق فى سورة البقرة يقول : (فلهم أجرهم عند ربهم) أى أنه ـ سبحانه ـ غفر لهم ما فعلوا من سوء وجزاهم على عملهم الصالح الذى لم يحبطوه ويذهبوه بعمل السيئات والآثام . هذا ما يتعلق بالآيتين . . آية سورة البقرة ، وآية سورة المائدة ، ونلاحظ أن آية سورة المائدة لم يرد فيها قوله : (فلهم أجرهم عند ربهم) ولعل ذلك راجع إلى الاكتفاء بذكرها فى سورة البقرة ، وذلك له نظير فى القرآن الكريم . . كحمل المطلق على المقيد ونحو ذلك .

أما آية سورة الحج فهى التى يأتى فيها الحكم : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » كأنهم لن يؤمنوا ولن يعملوا الصالح ، فتكون هذه هى التصفية العقدية فى الكون .

وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصفى المسألة الإيمانية فى الأرض ويقول عن المؤمنين بألسنتهم وهم المنافقون : « إن الذين آمنوا » وهو ابتداء الخبر ، وتكون فيه « الذين آمنوا » فى محل نصب لأنه اسم « إن » كما يقول النحاة ، وهو سبحانه قال هنا : و« الصابئون » وهى معطوفة على منصوب . وهذا كسر للإعراب . إنّ الإعراب يقتضى أن تكون الكلمة منصوبة فتكون « الصابئين » لماذا إذن عدل الحق عن إنزال الكلمة حسب سياقها من الإعراب وأنزلها بكسر الإعراب مع أنه فى آية أخرى قال : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين) .

لقد جاءت هنا فى مكانها ودون كسر للإعراب ، وهى قد جاءت مرة قبل كلمة « النصارى » وجاءت مرة أخرى بعد كلمة « النصارى » . وهنا لا بد أن نتعرف على زمنية الصابئين ، فقد كانوا قوماً متقدمين قبل مجىء النصرانية ، فإن أردنا أن نعرف زمانهم نجد القول الحق يقدمهم على النصارى ، وإن أردنا أن نعرف منزلتهم فإننا نقرؤها فى موضع آخر فى القرآن ونجدهم يأتون بعد « النصارى » . إذن فعندما أرّخ الحق لزمانهم جاء بهم متقدمين ، وعندما أرّخ لكمّهم وعددهم ومقدارهم يؤخرهم عن النصارى ؛ لأنهم أقل عدداً فهم لا يمثلون جمهرة كثيرة كالنصارى .

وجاء بها الحق مرة منصوبة ومرة مرفوعة ، لنتعرف ونلتفت إليهم . وكسر الإعراب كان لمقتضى لفت الانتباه . وكان الصابئة قوماً يعبدون الكواكب والملائكة ، وهذا لون من الضلال .

إذن فهناك اليهود الذى عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء موسى عليه السلام مبلغاً عنه ، وهناك النصارى الذين عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ مبلغاً عنه ، وهناك المنافقون الذى أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولكن لم يلمس الإيمان قلوبهم .

وأراد الحق أن يلفتنا إلى أن الصابئين هم قوم خرجوا عن دائرة التسليم بوجود إله خالق غيب ، ويحدثنا الحق أنه يغفر لهم إن آمنوا وعملوا صالحاً . فالإيمان بالله شرط أساسى لقبول العمل الصالح والإثابة عليه . وجاء بهم متقدمين على النصارى احتراسا وتوقيا من مظنة أنه لا يعفو عنهم إن آمنوا وعملوا العمل الصالح .

ونلحظ أنها جاءت أيضاً فى معرض جمع الله فيه بينهم وبين من يعبدون أغياراً من دون الله ؛ لأن من يلصق ألوهية بغير الله يكون كمن عبد الكواكب وخرج عن التوحيد .

إنه سبحانه وتعالى يتيح لكل إنسان أن يدخل حظيرة الإيمان ويقيم تصفية عقدية يدخل فيها الكل إلى رحاب الإيمان ويقطعون صلة لهم بالشرك . فلو آمن المنافقون واليهود والنصارى والصابئون وعملوا الصالحات فلهم الأجر والمثوبة من الله ولا خوف عليهم من عذاب الآخرة ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا ، وجاء العمل الصالح بعد الإيمان ؛ لأن الإيمان إذا لم يقترن بعمل صالح يكون عرضة للسلب والعياذ بالله ولا فائدة فيه ، وسبحانه يريد أن يسيطر الإيمان على حركة الحياة بالعمل الصالح فيأمر كل مؤمن بصالح العمل حتى يكون لهم الأجر عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما الذين يصرّون على موقفهم الكفرى ، فإن الله يفصل بينهم يوم القيامة لأنه على كل شىء شهيد . وكلمة « يفصل » تدلنا على أنه سبحانه وتعالى سيصدر الحكم الذى يبين صاحب الحق من غيره . ونعرف أن الذى يحكم إنما يحكم ببينة . والبينة هى الإقرار ، والإقرار - بلغة القانون - سيد الأدلة . أو الحكم بشهود ، أو الحكم باليمين ، وهو سبحانه يفصل بين المواقف المختلفة . والفصل هو القضاء بحكم . وعندما يكون الذى يحكم هو الذى شهد ، فهو العادل . لذلك قال الحق : « إن الله على كل شىء شهيد » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والميثاق هو العهد المؤكد الموثق ، الذى يقتضى الوفاء الشديد . ولا تُوثق العهود إلا مظنة المخالفة . والمواثيق فى الإيمان بالله كثيرة . فهناك الميثاق الأول عندما كنا جميعاً فى ظهور الآباء .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

(من الاية ١٧٢ سورة الأعراف)

أو الميثاق الذى أخذه الله لنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أو الميثاق الخاص الذى أخذ على كل أمة . وفى كل جزئية من جزئيات الدين يؤخذ ميثاق ، فنحن فى الإسلام مأخوذ علينا الكثير من المواثيق . وكذلك رأينا النبى وقد أخذ لنفسه الميثاق فى العقبة ، رأى الرسول أن ما يربطه بالأوس والخزرج الكثير ، كما يربطه بكل قوم يحنون إلى الوحدة تحت راية إيمان واحد ، وكان اليهود